

كلمة ١٠١ / حسن حنفى

الإسلام من خلال كتابات المستشرقين

أيها الإخوة والأخوات إسمحو لى أن أخذ صورة أخرى حول كيف رأى العالم الإسلامى الغرب ؟ ، ماهى الصورة المتبادلة بين الإسلام والغرب فى العصر الحديث التى ربما كانت إمتدادا للعصر القديم؟ فى حقيقة الأمر أن هناك ثلاث صور رئيسية للغرب فى مرآة الإسلام ، الأولى فى العصر اليونانى الرومانى والثانية فى العصر الوسيط والثالثة فى العصر الحديث ، فالصورة الأولى للغرب فى مرآة الاسلام كانت تظهرنا على تميز شعب وثقافة وحضارة إيجابية للغاية ، فالغرب فى ذلك الوقت كان الغرب اليونانى ، ولاتوجد حضارة عظمت حضارة أخرى مثلما عظمت الحضارة الإسلامية الحضارة اليونانية والتى تمثلت فى رموز فكرية انسانية كثيرة ، سقراط ، أفلاطون ، أرسطو المعلم الأول و جالينوس . . .

أعطى المسلمون الآخر حقه بل ربما أكثر مما يستحق ، وبظلميوس الأول هو بطلميوس الثانى ولا غرابه فى هذا التطابق ، وأرسطو هو المعلم الأول والفارابى هو المعلم الثانى ولهذا الحد بلغ الاعجاب بالآخر ، والتواضع أمام الآخر وتعظيم الآخر . . . الخ . . .

بل أنهم من كثرة إعجابهم بالآخر والذى تمثله الحضارة اليونانية وجدنا هذا التعظيم الذى أعملوه فيما يسمى بقضايا الانتحال ، فهل من المعقول أن الأستاذ لايراسل تلميذه ؟ فيؤلفون رسائل بين أرسطو والاسكندر ، وهل من المعقول أن أم الاسكندر وهى منتظرة إياه فى أثينا لاتقلق على فلذة كبدها ؟ وهل من المعقول أن الاسكندر هذا الابن البار لايربأ به ؟ فيؤلفون رسائل بين الاسكندر وأمه ، هل من المعقول أن أفلاطون صاحب الصورة المثالية لا يكتب وصيته ؟ وهل من المعقول أن أرسطو وهو بهذا المنطق وهذه الطبيعيات وهذه الامكانيات ، وهذا العلم الغزير لاتكون له رؤية نظرية . . . وهل من المعقول أن أرسطو صاحب العقل لا يكون له جانب دينى صوفى

باطنى ، يضيف إليه أفلوطين بعضاً من أجزاءه ويأتى الفارابى محاولاً الجمع بين أفلاطون الالهى وأرسطو ظاناً أن كتاب اثولوجيا هو لأرسطو ، فيصبح — الفارابى — المعلم الثانى .

لهذا الحد بلغ التعظيم والاجلال والإحترام للآخر ، فصفا الغرب بالنسبة للشعوب العربية الإسلامية الفاتحة وهو مهزوم كانت مثالية ولم يجدوا غضاضة فى أن يأخذوا عن أيديهم ويترجموهم وأن يعتبروهم معلمين رواداً وسموهم الأوائل وسموا أنفسهم الأوآخر وهم المتقدمون ، هذه هى الصورة الإيجابية لتعامل الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية .

الصورة الثانية التى ركز عليها الأخ محمود إسماعيل ، هى صورة عصر ابن خلدون ، والمسلمون فى هذه الفترة كانوا يتصورون الأوربيين فى الصفا الأخرى للبحر المتوسط " تلاميذ " فى حاجة الى تعليم ترسل اليهم الكتب وترجم لهم عبر اللاتينية ، وأسقف طليطلة ظل مائتى عام يتحدث عن اللغة العربية ويترجم كل الروائع العربية إلى اللغة الأوربية ، اذن المسلمين فى الصورة الثانية كانوا يعتبرون أنفسهم أساتذة ، وكانوا يعتبرون الأوربيين مجرد تلاميذ ، وهارون الرشيد يستطيع أن يعلم شارلمان ويبحث الرشيد عن بعض المسائل الفكرية ولا يجد أحداً يرد عليه . . . فيكتب إلى عبد الحق ابن سبعين ، وابن سبعين يقول له " هداك " الله أيها الأخ الرشيد أنت طلبت المعرفة والهداية، وإياك نهديك هذه المعرفة أى أن ابن سبعين هو الذى يعلم . . . فكان عند المسلمين احساس ليس بالدونية ولكنهم يقومون بدور المعلم والمرشد ، ويردون للغرب جميله عندما كان اليونان يعلمون العرب قديماً، أصبح المسلمون يعلمون الغرب فى العصور الوسطى .

والصورة الثالثة وهى الاهم وهى الأكثر فى الزمان ولكنها الأفضل فى الأثر ، هى المحدودة الجغرافية وهى التى تضم الحاضر والمستقبل ، عندما بدأ الغرب بفضل هذه الترجمات يتحول من تلميذ الى استاذ وعاد السلام الرومانى من جديد . . . وبالرغم من أن المسيحية قد انتشرت من الشمال إلى الجنوب إلا أن هذه المسيحية قد تخلت عن الكثير من مبادئها مكتسبة بعضاً من مبادئ اليهودية ، فهو أى الجنوب مسيحى فى

الظاهر يهودى فى الباطن ، أثينى فى الظاهر أسبرطى فى الباطن ، عقلانى فى الظاهر ودينى فى الباطن ، ففى المصدر اليهودى ٠٠٠ تغلب المصدر اليهودى على المصدر المسيحى

ومنذ القرن الثانى الميلادى وعندما بدأ العهد الجديد ٠٠٠ نبه البعض إلى هذا الخطر المتمثل فى هذه الثنائية يقول له أوريجن أن السيد المسيح له صور سابقة فى أنبياء بنى إسرائيل ٠٠٠ ثنائية الظاهر والباطن المسيحى واليهودى

وفى المصدر اليونانى الرومانى تغلب المصدر الرومانى على المصدر اليونانى وتغلبت أثينا على اسبرطة والقوة والعضلات على العقل وحتى فى هذين المصدرين اللذين كونا العقل والوعى الأوروبى فى العصر الوسيط فما زالت الوثنية الطبيعية الأوروبية تؤثر على عادات الشعوب أى الوثنية الطبيعية عند الجرمان وعند السلف ، وبالتالي بدأ الغرب فى العصور الحديثة بما يسمى بالكشوف الجغرافية وخاصة بعد أن طرد المسلمون من الأندلس وانتهت الفترة الأندلسية فى غرناطة واشبيلية وطليلة، وبدأ البرتغاليون فى التوغل إلى سواحل اسيا وتسنى لهم اكتشاف العالم الأسوى و مع هذا الإكتشاف هنا بدأت الريادة فى المركز الأوروبى ، وهنا بدأت الصورة الثالثة فى الغرب فالصورة الأولى كانت مثالية والصورة الثانية كانت للتلميذ الذى يتعلم والصورة الثالثة كانت للتلميذ الذى يتصدى للمركزية الأوروبية ويسمى حركة الأنفاس حول العالم بالكشوف الجغرافية ٠٠٠ وبالتالي فإنه من القرن الخامس عشر وهو عصر الكشف الجغرافية إلى عصر النهضة إلى محاكم التفتيش بعد أن انتهى حكم الإسلام فى الأندلس، إلى بداية ظهور المثل التى تعلمها الغرب من الحضارة الإسلامية فى العقل والعلم والطبيعة والمجتمع والعقل الإجتماعى إلى آخره، فى الوقت الذى كان فيه ابن خلدون يؤرخ للحضارة العربية الإسلامية القديمة وبين كيف نشأت ولماذا انهارت من البدو إلى الحضار .

وفى هذه الاربعة أو الخمسة قرون ومنذ القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين كان هو عصر الريادة الأوروبية الذى تصدى له فى ذلك الوقت الدولة العثمانية ٠٠٠ ونحن تأثرنا بصورة الدولة العثمانية بالشام وبحكم الدولة العثمانية للعرب ٠٠٠ ولكن

هنا الدولة العثمانية كانت تدافع عن نفسها ضد الحركات الانفصالية التي كانت تكبلها من الداخل ، والغرب يتحرش بها من الخارج ٠٠٠ والذي يذهب إلى الجزائر أو تونس أو المغرب يجد صورة غير ذلك حيث نجد أن الدولة العثمانية كانت تدافع عن استقلال المغرب العربي ضد الغزوات الأوروبية وكانت تدافع عن مصر ضد الفرنسيين ٠٠ الخ ، ففي الوقت الذي كان يأخذ فيه مكان الريادة وكانت آخر المحاولات لصدد الهجوم الغربي ضد العالم الإسلامي تقوم بها الدولة العثمانية ، ولما انتهت الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى بالهزيمة تم تقطيع أو صالها فيما يعرف بالاستعمار للعالم العربي .

بطبيعة الحال حدث نوع من ظهور القوميات العربية والنهضة العربية في القرن التاسع عشر في محور هو كيف نستطيع أن ننهض ؟ وكيف نستطيع أن نطرد الاستعمار ؟ وكانت هناك تيارات ثلاثة تتعامل مع الغرب ، تيار يبدأ بالدين وهو الإصلاح الديني ولكنه ينتهي إلى أن النموذج الغربي هو الحل متمثلاً في العقل الإجتماعي والمدنية والبرلمان والتعددية الحزبية ، ٠٠٠

وفي بداية العصر الحديث كان هناك تناقض بين الدين والعلم والدولة ، ولكن في النهاية كانت الأمور واحدة متمثلة في أن الغرب هو نموذج التحرير ، وبعد هذه المحاولة ، الأولى للاتصال بالغرب ورؤية الآخر لمرأتنا ، ورؤية النفس في مرآة الآخر ، ثم تيار آخر يدعو أنه لاحل لنا الا النموذج الغربي المتمثل في الحرية والعدالة والديموقراطية والتصنيع ٠٠٠ الخ ٠٠٠ صحيح أنه من خلال مرآة الغرب بدأت الحركات الوطنية وبدأنا نتحرر من الاستعمار في ثورة ١٩١٩ ، وكل ثورات العالم العربي كانت إما من الأمبريالية أو الإصلاح الديني أو الليبرالية أو التغيرات الإجتماعية الإقتصادية وكلها كانت نماذج للتحرير .

على أية حال بعد حدوث الثورات العربية ٠٠ كانت الليبرالية هي الصفة السائدة، ثم أصبحت الدولة القومية الاستراتيجية هي النموذج بعد التحسينات وكلاهما نظامان مستقران معارضان للغرب ، وبدأت صورة الغرب تتعقد هل هو العدو أم الصديق ؟ هل هو الذي استعمرني ؟ كما أنه هو الذي أعطاني الوسائل التي أحرر بها من

الاستعمار ، وأعطاني الصناعة في دولة محمد على الذى كان يريد لها دولة تنافسه ، وتظهر دولة عثمانية جديدة حديثة لا يكون مركزها أستانبول بل يكون مركزها القاهرة . ونهاية هذه الصورة غامضة فهل الغرب الصديق أم العدو ؟ الجرثومة أم الدواء ؟ الجار القريب أم الغريب البعيد ؟ صحيح إننا على ضفتى البحر المتوسط ، اذا قوى الشمال أثناء الحكم اليونانى الرومانى ضعف الجنوب ، وإذا قوى الجنوب إمتد أثره إلى الشمال ، والآن يقوى الشمال ليمتد أثره إلى الجنوب ، وبعد حركات التحرر الوطنى عاد الجنوب للمحاولة ، ولكن هيمنة الشمال الأوروبى بدت كأنها هيمنة بلا نهاية لتأخذ العولمة أحد أشكال الهيمنة الأوروبية كالإستعمار فى القرن الماضى ، فالإستعمار ليس فقط إستعماراً عسكرياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، وبعد نهاية عصر الإستقطاب فى أوائل التسعينيات ، بدأت مجموعة الدول الصناعية السبع أو الثمان تحول العالم إلى قرية واحدة إلى سوق واحد من خلال منظمة التجارة العالمية تحت شعار ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات ، وبدأت هذه المبادئ تترسخ بعد سقوط المعسكر الإشتراكى وإنتصار المعسكر الرأسمالى ، فالدول تطالب بحسن الإدارة وغيرها من مفردات المعسكر الرأسمالى

والذى يحدث الآن وهو استتباب الأمن والنظام ودخول الدول بيت الطاعة فى عصر العولمة والتخلى عن الدولة الوطنية . . . ولكن ما زالت الدول تعاني ففى فلسطين التى تعاني من وطأة الإحتلال وكل يوم يذبح الأطفال والنساء والشيوخ وتجرف الأراضي وتهدم المنازل وتصفى القيادات ولا أحد يتحرك وفى مؤتمر جنوب أفريقيا هذا العام "ديربان" رفضت أمريكا مجرد الإعتراف بالأفارقة ، حوالى ٤٠ مليون أفريقى أصطيدوا كحيوانات أفريقية ليعمروا "لوزيانا" بالعالم الجديد كما رفضت أن تعترف بأن الصهيونية حركة عنصرية لما يحدث فى فلسطين ، وأمام العجز العربى العام ، وأمام الصمت العربى بعد الشيشان ؛ ربما حدث انفجار نفسى ، وما حدث فى سبتمبر فى الولايات المتحدة ليس الا انفجاراً نفسياً ، ذهنى حضارى ثقافى فى مقابل هذا الصمت .

بعدما استتب الأمن للعولمة ، من أين يأتى القطب الثانى الذى يتحدى ربما ليس

اليوم — بل غدا؟ أمريكا اللاتينية محصنة بالمخدرات والجرائم المنظمة والفقر ، أفريقيا مهددة بالأيديز والأمراض والحروب الأهلية والتصحر ، فقط المنطقة العربية الإسلامية هى التى فيها نوع من التغير بالنسبة لفلسطين وبالنسبة للشيشان ، وما زالت الأسئلة تتوالى ، ولم أجد منطقة فيها هذا القدر من التساؤلات حول الماضى والحاضر والمستقبل الأنا والغير والهوية والإغتراب والمصير والوجود كما أرى فى العالم العربى، ونحن لم نخضع بعد مع الباقين ، ولم نجعل القديم والجديد متجاورين كما تفعل اليابان وكوريا كنوع من تقسيم العمل ، أنا عصى فى حياتى العامة ، ويابانى تماما أباشر أبشع أنواع السحر والخرافة فى حياتى الخاصة ، ونحن ما زلنا نوازن بين القديم والجديد

إذن إحتمال أن يظهر قطب ثان غدا فى تحد للقطب الأول هو من المنطقة العربية الإسلامية ولذلك أكثرنا علينا من الضرب والتخريب ، فحوصر العراق كما حوصرت ليبيا ، وتهديد الثورة الإسلامية فى إيران ، تهديد السودان وتهديد لبنان ، وتهميش مصر ، و سياسة التجزئة عربى ، كردى ، بربرى فى تلك المنطقة التى تقف فى وجه العولمة ... فالعولمة ذات اتجاهين هما تجميع المركز وتفتيت الأطراف ، حتى تبقى إسرائيل هى الدولة الصهيونية الوحيدة والدولة اليهودية الوحيدة وسط دولة سنية ودولة شيعية ودولة كردية ودولة بربرية .

وبالتالى أمام هذه الهجمة الجديدة أخذ العالم العربى يستلهم صوتا من الذاكرة ممثلا فى بدر وأحد والخندق ، صحيح نختلف فيما يتعلق بالتحليل النظرى ولكن نتفق فى التجربة ، فهذا الأفغانى العارى الحافى الذى لا ياكل الاكسرة خبز ويختبئ فى كهوف ويتصدى لأبشع أنواع التكنولوجيا سعيد ببدر وأحد يأتيه العدو من حيث لا يدرك ومن حيث لا ينتظر فيبدع من جديد فى المقاومة ... والآن هناك عدم إحساس بالأمن فى الولايات المتحدة ، كما أن هناك عدم إحساس بالأمن فى إسرائيل ، والإسلام الأسويى هو الذى ربما يحمى الإسلام العربى ، فالإسلام الأسويى هو القادر على الصمود والقادر على التضحية ، ومن ثم فلربما بنظرة إلى المستقبل، سنجد الصين وأفغانستان والشيشان ولكن فلسطين وأفغانستان هما اللتان سوف يتكون حولهما القطب

الثانى •

ربما ختاماً أقول الآن هناك منذ بدايات القرن العشرين هناك إحساس بالخطر ، إحساس بالنهاية ، إحساس بأن الغرب منذ القرن الخامس عشر هو الأعظم عقب الإصلاح الدينى وعصر النهضة ، والعقلانية فى القرن الـ ١٧ والتتوير فى القرن ١٨ ، والنهضة العلمية فى القرن ١٩ ، شبنجلر تكلم عن انهيار الغرب ٠٠ ونستطيع أن نتنبأ بأن الغرب شارف على النهاية ، ربما بعد الحداثه وما خلق بعد الحداثه من نبض العلم ونبض العقل ٠٠٠

وربما ظهرت فى العالم العربى حركات ترفض هذا العدوان الجديد من حيث الهجوم على الإسلام والمحاورة والتبعية لهذا العدو الجديد لأن قوامها وخبزا وحياتها وسلاحها ، وبالتالي ستحاصر الأنظمة فى العالم العربى ، وربما فى المستقبل القريب لو اختارت الشعوب ستخسر الحديد أى السلاح والقوة ، ولو اختارت الحديد ستخسر الشعوب ، هذه هى الصورة بيننا وبين الغرب •

اسمحو لى أن أعطى آخر فكرة فيما يتعلق بروح التاريخ ، فروح التاريخ ربما سرت من الشرق إلى الغرب ومن الصين والهند وفارس وحضارات ما بين النهرين واليونان والرومان والمنطقة العربية، من يدري فربما نشاهد حركة معاكسة لوجداننا التى تبدأ تعود من الغرب إلى الشرق الجديد، فى العالم العربى والإسلامى وفى الصين وفى جنوب آسيا وأسيا الوسطى وأوربا إلى آخره ، فميزان القوى الآن يتوجه من أوربا نحو آسيا ، ٠٠٠ ولربما ما حدث اليوم من يدري ٠٠٠ ستأتى أمريكا لتأخذ، إن أربعة أخماس سكان البشرية فى آسيا ، والصين خمسها وللهند خمسها والمسلمون خمسها ٠٠ تستميل أمريكا بل تسيطر على أربعة مليارات من السكان فى آسيا فى بحر قزوين الصين وجنوب روسيا وتهدد بها إيران وأندونيسيا وماليزيا والعراق وتركيا وأنا وأنت!! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته